في تفكيك
مفهوم الجهاد

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

- دفاتر تفكيك خطاب التطرف -

المشرف العام: أ. د. أحمد عبادي / **مدير التحرير:** د. محمد المنتار

الإخراج الفني: يونس عبدوس

الطبع: مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط / **الطبعة الأولى:** (1439هـ/2018م)

الإيداع القانوني: 2018MO1267 / **ردمك:** 978-9954-600-50-4

تطلب منشوراتنا من:

• وحدة النشر والتوزيع وتنظيم المعارض

الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية الرباط.

الهاتف والفاكس: 0537.70.15.85

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• المعرض الدائم لإصدارات الرابطة المحمدية للعلماء

شارع فيكتور هيكو رقم 53 مكرر، الأحباس، الدار البيضاء.

الهاتف: 0522.44.86.57 الفاكس: 22.54.20.51 5 (212+)

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط

البريد الإلكتروني: Derelamane@menara.ma

هاتف وفاكس: 37.20.00.55 5 /37.72.32.76 5 (212+)

كل الحقوق محفوظة

Tous droits réservés

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

www.arrabita.ma

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو اختصار أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[دفاتر تفكيك خطاب التطرف]

3

في تفكيك مفهوم الجهاد

الدكتور أحمد عبادي

توطئة:

المصطلحات كائنات، تحيى في النص الذي توجد فيه، فإذا أراد المرء التعامل مع مصطلح معين، فإن ذلك يقتضي دراسته كما يُدرس الكائن في كل حالاته، نشأته، نمائه، كيف يتحرك انفراداً؟ وكيف يتحرك اجتماعا؟ ما هي علاقاته؟ وما هي ضمائمه؟ وما هي مشتقاته؟؛ أي، حصر جميع حالات حراك هذا المصطلح في مجاله، قبل أن يصبح المرء قادرا على الحديث عنه بالدقة المطلوبة.

ومصطلح الجهاد، بهذا الصدد، ليس بدعا عن سائر المصطلحات، **فالجهاد في القرآن الكريم، يتجلى بحسب السياقات التي يوجد فيها**، ولئن كان الجامع بين الحالات كلها التي يرد فيها مفهوم الجهاد هو المجاهدة، وحمل النفس على ما تكره، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، فإن جملة من التكييفات التعريفية تفرض نفسها بحسب سياقات الورود.

وإلا فإن الحديث عن الجهاد دون مراعاة كل الحيثيات التي تحتوشه، لا شك سيفضي إلى فهوم سقيمة، ومبتسرة، وجزئية.

وهو ما رأيناه بالفعل، حيث جرى تحويلُ هذا المفهوم الجليل، عبر التاريخ الماضي والحاضر، إلى أداة قتل في أيدي أهل المروق، وهو تحويل لم يقتصر فقط على الجهاد، بل تناول سائر المفاهيم الكبرى في الإسلام، مثل الدين، والشريعة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، والإسلام والكفر، ودار الإسلام، ودار الحرب، والهجرة، والنصرة، والدولة ووظائفها، والأمة، والخلافة، والإيمان، وعلائق الأمة بالدين، ومفهوم الوعد الإلهي، ومفهوم الحاكمية، ومفهوم التمكين، وغير ذلك من المفاهيم القرآنية.

أولا. مفهوم الجهاد:

الجهاد مصدر من جاهد جهادا ومجاهدة، جاء في «لسان العرب»: «الجهاد استفراغ ما في الوسع والطاقة»[1].

وقد عرّف علماؤنا الجهاد بجملة من التعاريف، التي فيها هذا المعنى، فعبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: «الجهاد هو استفراغ الطاقة فيه وأن لا يخاف في الله لومة لائم»[2]، وقال مقاتل: «الجهاد العمل لله حق عمله وعبادته حق عبادته»[3]، وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: «هو مجاهدة النفس والهوى»[4].

فهذه التعريفات جميعها، فيها معنى استفراغ الطاقة، وعدم الخوف في الله لومة لائم، والعمل لله حق عمله، وعبادته حق عبادته، ومجاهدة النفس والهوى، وهي كلها معاني مستمدة من مشكاة قول الله عز وجل: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، يقول تعالى في محكم التنزيل في سورة الفرقان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: جاهدهم بهذا الوحي الخاتم، وأبلغهم أنواره، وبيّن لهم هداه، واستخرج منه حججه الدامغة التي من شأنها أن تُفنّد حججهم الداحضة، فهذه المعاني جميعها، تُبيّن أن

(1) لسان العرب، ابن منظور، مادة: جهد.

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، 8/3.

(3) نفس المصدر.

(4) نفس المصدر.

الجهاد حالة نفسية، وحالة عقلية، وجب على المكلَّف، كل مكلَّف، أن يكون مستبطنا ومستدمجا لها بين جنبيه.

وقد أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه في مسنده من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[1]، وسند هذا الحديث المبارك جيد، وصحّحه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

وفي ظل هذه المعاني يُفهَم قوله ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام.. وأما ذروة سنامه فالجهاد**»[2]، مما يعني أن الجهاد، حالة مصاحبة للإنسان في كل

---

(1) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، وسنده جيد، (23958) ، وابن حبان (4862) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (796)، والحاكم (24)، وابن المبارك في «الزهد» (826)، والنسائي في «السنن الكبرى» (11794) ، والبيهقي في «الشعب» (10611) عن فَضَالَة بْن عُبَيْدٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» .

ورواه الترمذي (1621) مختصرا، ولفظه: (المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ) . ورواه ابن ماجة (3934) مختصرا ، ولفظه : «المُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» . وصححه الترمذي والحاكم .

وله أصل ثابت في الصحيحين؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجَر ما نهى الله عنه»، وجاء عند الإمام مسلم: «المؤمن مَن أمِنه الناس على أموالهم وأعراضهم».

(2) حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك، في كتاب الجهاد، رقم الحديث 979.

أحواله، وبحسْب كمال درجة الجهاد الذي يجاهده الإنسان، تَعْظُم منزلته عند الله تعالى، ولذلك فإن سيدنا رسول الله ﷺ، كان أرفع العالمين مقاما، وأعظمهم منزلة، لأن هذه الحالة كانت ملازمة له ﷺ في كل أوضاعه، في حِلّه عليه الصلاة والسلام، وترحاله، فالجهاد بهذا المعنى، يكون ملازما للقلب، ويكون ملازما للجنان، ويكون ملازما للسان، وما يصدر عنه من بيان، وحين يكون التهديد بالأذى وبالضرر حالاّ، يُفرَض ساعتئذ الدفاع عن الأرواح، وحقن الدماء بكل الوسائل المتاحة لمنع من عنده نية العدوان من إمضاء عدوانه.

حين نعود لسورة براءة، ونقرأ آياتها الكريمات، ولا سيما فواتحها، فإننا سوف نجد هذه الآيات، قد جاءت من أجل تحقيق مقصد الوقاية من العدوان، فحين يقول الله عز وجل: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ. فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ. وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:1-4].

فهاهنا بيان أن المشركين الذين يُصِرُّون على شركهم، ويصرون على إشاعته، كما يصرون على أذى المسلمين، ولا يحترمون العهود ولا العقود، يبرئون المسلمين بسلوكهم هذا، من مراعاة ذمتهم، بخلاف المشركين الذين عاهدوا ووفّوا، والذين قال الله فيهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾، فهؤلاء لهم حرية أن يبقوا على ما

هم عليه، ولا سيما إن لم يظاهروا على المسلمين أحدا، فلابد من أن يُتَمَّ إليهم عهدهم، ولو كان قرونا، وأوصى الله عز وجل باحترام هذا العهد، إذ قال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين يجدهم الله حيث أمرهم ويفقدهم حيث نهاهم، لكن الذين لا عهد لهم، ويصرون على الأذى ويصرون على التجييش. فإن وظيفة هذه الآيات تكون، إما ردّهم عن غيّهم، وثنيهم عن أذاهم، وإما إقامة الحجة عليهم، وتبرئة ذمة المسلمين إزاءهم.

كما أن هذه الآيات، فيها معنى **أن من أقامهم الله تعالى بريادة نبيه ﷺ، لبناء هذا الدين، في بُعده التطبيقي، وفي بعده التنزيلي، شكلوا طائفة، لابد أن تحمي ذاتها، وتحمي هذا البناء، لكي تقوم فتصبح محرِّرة للأنوار**، ومحررة لكل القيم الهادية، الحاكمة والتفصيلية، التي يكتنزها هذا الوحي الخاتم.

فوظيفة من هذا الخطاب القوي، هي فَسْخُ عزائم العدوان عند أهل العدوان ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:5][1]، وهذا لا يعني أبدا الإلزام باعتناق هذا الدين لمن لا يريد اعتناقه، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، ويقول عز وجل: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ

(1) لا بد من الوقوف عند قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، ولا غرو، فالسورة نفسها، اسمها التوبة !! فتأمله..

الْغَيِّ﴾[البقرة:256]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

وكلٌّ عليه أن يتحمل مسؤوليته، فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فيه أن المخرج والرحمة دائما موجودان، وأن هؤلاء المعادين إن تابوا عن أعمالهم العدوانية، وتوَّجوا ذلك، بالصلة بالخالق عبر الصلاة، والإحسان إلى المخلوقين عبر الزكاة، فذلك يكون جمعا للضمانين؛ ضمان النجاة في الدنيا، وضمان النجاة في الآخرة. فالآية خرجت مخرج الترغيب، وليس مخرج الإلزام، لأن الأمر يحال كله إلى العهد، فإن تابوا ورجعوا إلى العهد وأبدوا رغبة المعاهدة، فإنهم يكون لهم ذلك.

ويبيّن عدم الإلزام بالإسلام هذا قوله جل وعز: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ. حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:6]، أي من دون أن تشترط عليه إسلاما أو غيره، ولا يمكن أن تُفهَم الآية السابقة في معزل عن الآية اللاحقة، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:6]، وبهذا يستقيم المعنى، والذين يسمون هذه الآية آية السيف في فصل لها عن سياقها، إنما غرضهم أن يظهروا في الدين، ما ليس بموجود فيه.

ويقول الله عزوجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، وهم على شركهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:7] حتى الذين يدخلون في العدوان، والذين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، فالله عزوجل يفتح أمامهم باب الأوبة في الآية الحادية عشرة في سورة

براءة، بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:11].

إن من مقاصد سورة التوبة المباركة، فسخ عزائم العدوان، عند من يستبطنونها، وبيان أن البراءة إنما هي من الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في الدين، أولئك الذين بالإضافة إلى كل ذلك، همّوا بإخراج الرسول، وبدأوا بالقتال أول مرة، وقد تضمنت فواتح سورة براءة الاستحثات والتحفيز على الصرامة في الموقف إزاءهم، وهي صرامة من شأنها بعث رسائل عدم الهوادة معهم من أجل ثنيهم عن نية العدوان، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة، من الآية:13].

فالمقصد الأساس من هذه الآيات الكريمات، وكما سلف إذن، هو فسخ عزائم العدوان عند أهل العدوان، بطريقة صادقة، تتضمن التأسيس لحماية الجماعة النبوية، حتى يُستكمل البناء، وإذا استُكْمِلت، فلا بد من العمل لتكون عند الجماعة، مُقوِّمات حمايتها وتحصينها من أضرب العدوان، الذي يرومه هؤلاء الذين أرادوا اجتثات شجرة هذا الفضل قبل أن يشتدّ منه العود.

ثم ينتقل السياق، بعد ذلك، إلى جهاد النفس، وذلكم ابتداء من الآية السادسة عشرة، بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16].

ثم يأتي توظيف مفهوم المخالفة لما عليه المشركون، بذكر ما ليسوا عليه، وذلك في أفق تعزيز كفايات التلقي والتعاضد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ

﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: من الآية:17]، أي: أن عليكم أن تعمروا هذه المساجد، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18].

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك، إلى عدم الاقتصار على المظاهر والتركيز على المخابر، وهو قول الله عزوجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، نفسه وشيطانه وعزائم الشر وأوامر السوء، إلى غير ذلك من أضرب الجهاد، التي سوف نأتي إن شاء الله على ذكر تفاصيلها، ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ بحسب تعريف رسول الله ﷺ الجامع المانع؛ أي أن الجهاد يبدأ بجهاد النفس والهوى، وأن الهجرة وجب أن تبدأ بهجرة ما نهى الله عزوجل عنه ورسوله، لكي ينتقل السياق بعد ذلك إلى كل المُقَدَّرات التي عند الإنسان، الأموال والأنفس، وهو قول الله عزوجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 20-22]. في إشارة واضحة لمن يستبطنون نية العدوان على الجماعة المسلمة الناشئة، بأنهم سيصطدمون بصخرة الإيمان بالله والتوكل عليه سبحانه، التي ستوهي قرون عدوانهم.

كناطِحٍ يوما صخرة ليُوهِنَها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعلُ

ثانيا. مفهوم الجهاد ووظيفية العلائق:

ثم تُطرح بعد ذلك قضية العلائق، وأن هذه العلائق في منظومة أرحم الراحمين، وجب أن تكون وظيفية بالأولوية، فالعلائق الدموية فيها واجب صلة الأرحام، لكن سلخ الأعمار لا ينبغي أن يكون مع من، وبرفقة وبصحبة من، ليس الصراط المستقيم هو طريقه، وهو قول الله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾، والمراد هنا الجهاد بحسب المفهوم الشامل، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 23-24].

مما يعتبر تغيرا لبراديغم العلائق الذي كان مُرْتَكِزًا أساسا، قبل نزول هذه الآيات الكريمة، على المكوّن الدموي، وهو ما تم تعزيزه بالمكون العقدي مع إعطائه من الأهمية والأولوية ما يضمن رفع بناء المجتمع الجديد الناشئ على أمتن الأسس.

ثالثا. البناء والتأسيس ليقين النصرة:

ثم يأتي بعد ذلك البناء والتأسيس ليقين النصرة، لقطع دابر الخوف من غير الله، وتأسيس نفسانيات البناء الشفاف والعزيز للمجتمع، مما يعتبر فسخ عزائم العدوان عند من يستبطنونه، من أول مفعولاته. لذلك خُتمت الآيات السالفات التي كانت تتحدث عن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:13]، ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

رابعا. مفهوم الجهاد من خلال آيات سورة التوبة:

نجد أن سورة التوبة المباركة، تتوالى آياتها المباركات، من أجل بناء وتجلية مفهوم الجهاد، بتواشج جميل وبهيّ، بما يشبه سبك الحلقات، أو رصف اللبنات، إذ فيها حديث كالحلقات، التي تشد كل منها الأخرى.

حيث نجد انطلاقا من الآية التاسعة عشرة، التنبيه إلى أن الفضل لا يُنال بالمظاهر، ولا بالأقوال، وإنما لا بد من حمل النفس على ما ينفعها في العاجل وفي الآجل، فرديا وجماعيا، وهو قول الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، والظلم ههنا يراد به ظلم النفس، بستر القدرات الكامنة والمكنوزة في الإنسان، وعدم إخراجها، وهو قوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: الآية:33]، أي لم تَستُر أو تُمسك منه شيئا.

ثم يأتي بعد ذلك الترغيب في الجهاد والهجرة، واللذان هما بحسب المنطوق النبوي الشريف في حجة الوداع: «**والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه**»، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم جاء في السياق المبارك، بعد ذلك توضيح مسألة العلائق كما سلف بيانه، بما يفيد أن سلخ الأعمار لا ينبغي أن يكون إلا مع من يتم

معه التعاضد لرفع معمار الرحمة والفضل، فالقضية ليست منحصرة بحال، في العلاقة الدموية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ثم أعقب ذلك بناء وترسيخ يقين النصرة، ابتداء من الآية الخامسة والعشرين، حيث يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ليتم شفع لبنة تأسيس يقين النصرة، بلبنة تأسيس يقين الدعم، الذي يؤسس لاستقلال الجماعة المسلمة، بريادة رسول الله ﷺ، وعدم ارتهانها لرفد القبائل المحيطة بأم القرى، ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:7]، أي أن هؤلاء لن يضركم غيابهم، وهو قول الله جل وعز في الآية الثامنة والعشرين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي أن الله عز وجل يدعم الأنفس المنخرطة في إشاعة الرحمة والفضل، حتى تستشعر فضل الله عز وجل عليها، بعد تأسيس يقين الدعم، الذي ينبني عليه الاستغناء بالله عز وجل عمن سواه.

خامسا. مراتب الجهاد:

1. جهاد الشبهات التي في العقول:

ينتقل بنا السياق انطلاقا من الآية الثلاثين من سورة التوبة المباركة إلى جهاد آخر، هو جهاد الشبهات التي في العقول، من خلال طرح جملة من الشبهات التي تحيد بالإنسان، عن جادة التعامل الصافي مع المولى جل وعز، من خلال شوب صفاء توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل شريك، وهو جهاد من شأنه الحُؤول دون ما يكدره، والاستغناء بالله جل وعز عمن سواه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة:30].

وفي ذلك أيضا تحصين للنبوة الخاتمة من أن يشوبها ما شاب النبوات السابقة، مع التحذير من وخامة آثار ذلك، فقال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:31]، هنا ينتقل السياق إلى جهاد اللسان من خلال إقامة الحجة والبرهان وهو قوله عز وجل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة:32]، وفي هذا تنبيه إلى أن هذا التخذيل، ثم هذا التكدير للصفاء التوحيدي، يتمّان بالأفواه، وعليه فإن مواجهتهما ينبغي أن تتم بجهاد اللسان الذي فيه إطفاء هذه النيران، وإذهاب هذه الكادورات، والشوائب وإزهاق هذا الباطل ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 32-33].

وهو جهاد اللسان والبرهان بإقامة الحجة الذي وجه إليه ربّ العزة بقوله سبحانه ﴿وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ [الفرقان:52]، ثم أعقب ذلك التحذير من الذين سطت عليهم شهواتهم، وتسلطت عليهم نفوسهم، واحتالت عليهم لكي يزعموا ما ليس لهم بحق، ويأخذوا ما ليس لهم بحِلٍّ، تنبيها لعلماء هذه الأمة من أن تتلاعب بهم أنفسهم، وتتجارى بهم الأهواء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: 34] مما يدعو إلى التساؤل، كيف زين لهم هذا الباطل؟ وكيف تلاعبت عليهم أنفسهم؟ وكيف استقر عندهم من القناعات ما أوردهم هذا المورد الوبيل والعياذ بالله.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34] فهو تحذير من الآليات، وتحذير من الشباك التي بها تحتال الأنفس حينما تصبح عميلة للطاغوت في ذات الإنسان، وفي معمار كيانه، لكي تدفع به نحو هذه المراتع الوبيلة -والعياذ بالله-، ثم تنبيه إلى مصير هؤلاء الذين يَتَغَيَّوْن كَنْزَ الذهب والفضة، ظنا منهم أن ذاك قوة يملكون بها الوصول إلى كل الشهوات التي يبتغونها، لكنهم ينسون مؤقتية وجودهم فوق هذا الكويكب، وينسون أنهم في فترة ابتلاء، فيفوتون فرصة عبادة الله عزوجل من مدخل الإنفاق في سبيله سبحانه وتعالى، فيقول جل وعز عن مصير هؤلاء: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 35].

2. التنبيه إلى تَصَرُّم الزمن ووجوب جهاد الغفلات:

ثم ينتقل السياق إلى بُعدٍ في غاية الخطورة؛ وهو بعد تصرم الزمن، فيتم تذكير الإنسان بمؤقتيته، حتى لا يُفَوِّت فرصة هذا البعد من أبعاد الوجود، لكي يَمْهَدَ لنفسه ويقدم لها ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20] في تنبيه واضح إلى بُعد تصرّم الزّمان، ووجوب جهاد الغفلات، حتى لا يقع الإنسان في الذهول ... ويفوت هذه الفرصة الفريدة، وذلك بأن يحسن في ما أتاه الله عز وجل كي يجزى الجزاء الأوفى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: 36]، أي أن قتالهم نتيجة لقتالهم هم للجماعة المتبّعة لسيدنا رسول الله ﷺ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

إن التعامل الخاطئ مع الزمن، يؤدي إلى عدم إعماله على وجه الخير والفعالية، وعلى العكس من ذلك، إعماره بالاحتيالات على الذات وعلى الجماعة؛ وعلى العقل الجمعي، بإقرار قوانين وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان كحكم النسيء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ والنسيء: هو تأخير حرمة شهر إلى آخر، بزحزحته عن موقعه مجاراة لما عندهم من أغراض خفية، حتى لا يكون الزّمن الذي يريدون فيه القيام بالمنكرات العدوانية، موافقا بزعمهم للأشهر الحُرُم.

ثم يخلص السياق القرآني إلى إعطاء المثال برسول الله ﷺ، وأنه كان أعظم الناس جهادا في كل هذه الأبعاد التي ذكرناها، ويستحث جل وعز المومنين، لكي ينفروا في سبيل الله، وألا يتثاقلوا، معطيا المثال بالرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 38-40].

وتكملةً لما سلف، جاء ذكر التقاعس، وذكر الثلاثة الذين خُلِّفُوا، وبيان أن على الذين يريدون فعلا اقتحام العقبة، والجهاد في كل الأبعاد التي مر ذكرها، أن يُعِدُّوا للأمر عدته.

فيقرّ السياق القرآني ابتداء من الآية السابعة والأربعين ثلاث حقائق:

الأولى: أن ربك لا يقضي إلا خيرا؛ أي كل ما قضاه الله عزوجل فهو خير، **والثانية:** هي معالجة قضية القضاء والقدر، حيث إن تَهَوُّك الإنسان بخصوصها، وفيها، وحولها يؤدي إلى أن يلقي على طاقاته وقدراته كوابح، يصعب التخلص منها. ثم تأتي **ثالثا**، معالجة آفات الكسل والجبن، والبخل، وقد وردت الاستعاذة منها في دعاء رسول الله ﷺ، حين كان يدعو الله عزوجل قائلا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ**

وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ»[1].

أما بيان الحقيقة الأولى، التي هي أن ربك لا يفعل إلا خيرا، فجاء من خلال بيان أن تقاعس هؤلاء المتقاعسين وإن بدا للجماعة المؤمنة أول وهلة، كما لو كان قلة في العدد ونقصاً فيه، وإضعافاً للقوة، فإنه خير، وأن الله عزوجل هو الذي فسخ عزائم انبعاثهم، فنجت الجماعة منهم، إذ إن عدم خروجهم خير، وهو قوله جل وعز: **﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾**.

ثم يأتي التأسيس للحقيقة الثانية المتصلة بالقضاء والقدر، ببيان أن الذي يستبطن فضل الله وتوجيهه بهذا الصدد، بإمكانه الثبات في

---

(1) الحديث كما في رواية أبي داوود: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ ؟ قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي»

المواطن الصعبة، قال تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

في هذه الآيات حسم لأذيال التهوّك والالتباس بخصوص القضاء والقدر، ببيان أن ما يصيب الإنسان، إنما هو تجلّ لما عند الله عزوجل في كتاب، وأن ما نراه يتسلسل من أحداث أمام أنظارنا ما هو إلا تجلّ لمكنون علم الله، فالله عزوجل لا يقدّر على عباده الذين عندهم وفاء بالعهد، واعتقاد بالوعد، إلا هذا الفضل (فضل التوحيد والإيمان) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. فالاسم الموصول "ما" في قوله تعالى: (ما كتب الله لنا)، ينصرف في حقهم إلى الفضل والخير.

ثم بعد ذلك تأتي الحقيقة الثالثة لمعالجة الكسل، والجبن والبخل، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. فبعد فهم للأنوار التي في هذه الآيات، واستيعاب البصائر التي فيها، لا يمكن للإنسان أن يكسل أو أن يبخل أبدا، إذ فيها بفضل الله وجوده، الدواء الشافي، والجواب الكافي.

ثم بعد ذلك تأتي معالجة آفة الجبن في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، لا يمكن لمن آمن بالله واليوم الآخر وآمن بالقضاء والقدر، وآمن أن الله عز وجل لا يُقدّر عليه إلا خيرا، وتخلص من الكسل ومن البخل لا يمكن لمن اتّسم بهذه السّمات أن يكون جبانا، ثم بعد ذلك يحيل السياق إلى داء الأثرة، وهو داء مهلك، لابد من جهاد النفس من أجل إزالته، وهو قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، فيأتي رب العزة بالبلسم والشفاء لهذا الداء، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ثم يبين جل وعز مصارف الزكاة والصدقات ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، لإظهار منافذ الخير.

بعد ذلك تأتي قضية في غاية الأهمية والمحورية، وهي قضية نظام النبوة، وأن الإسلام لا يكمل إلا بتجريد المؤمنين الاتّباع لنبيهم ﴿ اتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران:31]، وأن الاتباع لا يكون إلا بالمعية «مادية أو معنوية» وكذا بالتعظيم، وأن استراتيجيات المرجفين تعتمد على زعزعة هذا التعظيم لسيدنا رسول الله ﷺ بإطلاق الشبهات، مما يستوجب جهادا، نفسيا، وعقليا، واعتقاديا في الآن نفسه.

إن زعزعة هذا التعظيم تُؤدّي، إذا توصل المرجفون إلى تحقيقها، من خلال النيل من تعظيم النبيّ ﷺ إلى الحيلولة دون تجريد الاتباع له عليه الصلاة والسلام، ذلكم الاتباع الذي هو مظنة الفلاح، وقد تم فضح هذه الاستراتيجية الخطيرة، والرد عليها في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: 61)، وقال سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن جهاد الغفلات، وجهاد الغفلات في هذه الآيات القادمات ينقسم إلى عشرة أقسام، تختم بالرحمة والجمال للمؤمنين، وبالعقاب والجلال للمخذِّلين.

3. جهاد الغفلات:

الغفلة الأولى: غفلة اجتماعية؛ مفادها أن يدخل الإنسان إلى المجتمع كسبا وأداء، أخذا وعطاء، بعدم نباهة يتم النظر بسببها إلى جميع من يضطرب في جنبات المجتمع الذي يحيى فيه، على أنهم ثقاة، وصالحون، وبأنهم مؤمنون، مما من شأنه تعريض صاحب هذا الضرب من الغفلة على طُهر دوافعها، بعد الاصطلام بشهب الغدر والخيانة، لليأس، والانعدام الكلي للثقة، وكذا تعريضه للخوف من المحبة، والخوف من الإقبال على الغير والتعاون معه، مما يصبح

بمثابة السرطان الاجتماعي، وسبب ذلك كله في المبتدا، الغفلة التي تقود إلى عدم النباهة، وتقود بالتبع إلى الثقة بمن لا يستحق الثقة من المرجفين، ولو في حضور سيدنا رسول الله ﷺ، وهم أقوام يبدون من المؤمنين، وليسوا منهم، يبدو أنهم يدافعون عن الدين، وهم يسعون إلى هدمه.. فيأتي التنبيه إلى كل هذا، والتحصين منه، بالبهاء والجمال الذي في قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وفي هذا إثارة الانتباه لأخلاق هؤلاء،، وجهاد الغفلة عن سعيهم، ثم جاء بعد ذلك بيان مصائرهم في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، والانتباه لكل ذلك، هو الذي يضمن شفاء المجتمع من داء الشك، والخوف، والفرقة.

أما الغفلة الثانية، فهي الغفلة عن الاعتبار بالتاريخ، ومصائر الأقوام السابقين، وهي غفلة تؤدي إلى إعادة أخطائهم، وتكرار سقطاتهم، قال الله جل وعز في الآية التاسعة والستين والآية السبعين من سورة التوبة المباركة، دعوةً إلى جهاد هذه الغفلة عن الاعتبار ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ﴾. فغفلتهم عن الاعتبار بمصائر الأقوام السابقين، هي التي أوردتهم المهالك.

الغفلة الثالثة هي غفلة عدم التعاضد والتواشج والتماسك، فسنن رب العزة في المجتمعات تفيد أنه إذا كان أمامك مجتمع معاد، متامسك، وإن كان على الباطل، وأنت متفرق، وإن كنت على حق، فسوف يهزمك، مما يقتضي جهاد النفس لاجتناب الغفلة عن التعاضد والتماسك. وإلى هذا الجهاد المبارك ينبه تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71] في مقابل ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].

الغفلة الرابعة: الغفلة عن المعاد، فالإيمان بالمعاد هو الذي يثّبت الذين آمنوا، والتأسيس له في القرآن المجيد، هو الذي يمكّن من خدمة المصالح على المدى الطويل، فالإنسان إن لم يؤمن بثبات الأجر، إن قدم لنفسه، ومعاده، سيصبح مقتصرا على الأمور التي سيجني ثمراتها في الدنيا على المدى القصير، وسيحجزعن المجتمع الأعمال والإنجازات التي يحتاج إليها على المدى الطويل، لمجرد أنه يعلم أنه لن يعيش إلى زمن الاستفادة من ثمراتها، والإيمان بالمعاد وحده، هو الذي يضمن إنجاز هذا الضرب الضروري من الأعمال، وجلب هذا الصنف من المصالح.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وجليّ أن جهاد هذه الغفلة الرابعة، ضروري لاستمرار الأداء الإيجابي للمجتمعات.

الغفلة الخامسة، هي الغفلة عن تلوّنات النفوس، وأن هذه النفس حين تتسلط، يمكن أن تقود إلى آفات في غاية الهول، حيث يتحول الإنسان إلى ذئب بشري تحت تأثير وهم الدفاع عن مصالحه، ومصالح أهله وانتمائه، مما يقتضي تشميرا جادّا، وجهادا مستداما للإفلات من هذه السيرورات المبيرة، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الغفلة السادسة، وهي الغفلة عن الوفاء بالالتزامات، فالإنسان في حالة الإيماق والفقر قد يعاهد الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وكذا في الخوف ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:63] وغير ذلك من الحالات، غير أن أهل الإخلاف ممن اتسموا بهذا النوع من الغفلة، ينكثون ما عاهدوا عليه الله، كما في قصة ثعلبة[1].

(1) القصة كما أوردها ابن جرير الطبري في جامع البيان:

وحين يكون الإنسان متّصفا بالعزم فإن التوفية تكون هي التتويج دائما، مثل ما التزم به موسى عليه السلام مع أخيه هارون حين قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً

جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، ثم جاءه بعد مدة وكرر عليه القول فقال له: «امالك فيّ أسوة حسنة، والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت»، ثم جاءه بعد مدة وكرر عليه القول وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال له رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فكان يصلي مع رسول الله الظهر والعصر ويصلي عند غنمه باقي الصلوات، ثم أصبح لا يشهد مع رسول الله سوى الجمعة، ثم كثرت غنمه وزادت فتقاعد حتى لا يشهد الجمعة ولا الجماعة .

فقال رسول الله ﷺ ذات يوم: «ما فعل ثعلبة؟» فقيل له: اتخذ غنماً لا يسعها وادٍ، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، فلما وجبت الزكاة أرسل الرسول ﷺ رجلان ليجمعا الصدقة وقال لهما: «مُرا بثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سُليم فخذا صدقاتهما».

فمرا على حاطب وأمراه بدفع الزكاة فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، وطلب منهما العودة إليه عند الفراغ من جمعها، فذهبا إلى السُلمي فأخرج أطيب ما عنده، فرجعا إلى حاطب فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي، فأقبل الرجلين على رسول الله ﷺ فقال قبل أن يسألهما: «يا ويح ثعلبة» ودعا للسُلمي بخير، فأنزل الله قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ [التوبة 75].

فذهب رجل من أقارب ثعلبة يخبره بأن الله أنزل فيه قرآناً، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثي التراب على رأسه فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني». فلما قُبض رسول الله ﷺ ، وجاء أبوبكر حين استخلف، فجاء ثعلبة بصدقته فلم يأخذها أبوبكر، وكذلك حين استخلف عمر لم يأخذها منه، وكذلك عثمان حين استخلف رضي الله عن الجميع. وقد مات ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عن الجميع.

أخرج هذه القصة، ابن جرير الطبري في جامع البيان، (14 / 370)، والطبراني في «المعجم الكبير» (8 / 260 - برقم 7873)، والواحدي في «أسباب النزول» ص252.

مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: 26-35] فوفقهما الله للتوفية عليهما الصلاة والسلام، ولا يخفى أن جهاد التوفية يقتضي بدوره تشميرا، ونباهة في ضوء هذه البصائر المباركات.

الغفلة السابعة، الغفلة عن وخامة مآلات عدم التوفية بالعهود، يقول الله عزوجل تنبيها إلى مراتب ذلك، وتجنيباً من مهالكه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ والنتيجة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الغفلة الثامنة: الغفلة عن رقابة الله عز وجل على الناس، وأنه سبحانه يعلم السر وأخفى، وأنه تعالى سوف يوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، وهو قول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284]، أو في مفتتح سورة طه: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ لَهُ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 1-7].

هؤلاء الذين يغفُلون ويفرحون بقعودهم خلاف رسول الله؛ لأنهم كرهوا أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، هؤلاء يعرضون أنفسهم لوبال عظيم في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا لأنهم سيمنعون من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحرمون أجر صحبته والفوز معه عليه الصلاة والسلام، لأن الله عز وجل يَنبّؤه دائما من أنبائهم، وأما الوبال العظيم في الآخرة فيبدأ والعياذ بالله، منذ الإقبال على الآخرة والإدبار عن الدنيا مما يؤشر، نسأل الله عفوه وعافيته، على ما بعده، حيث نهى الله تعالى رسوله ﷺ أن يصلي عليهم ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

الغفلة التاسعة: الغفلة عن النُّهزات والفرص ومواسم الخير، وهو الذي جاء التنبيه إليه في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وحين تُفوّت هذه النهزة، فإن المجيء من بعد لا يغني؛ لأنه يكون بعد فوات الأوان، يقول جل وعز ـ منبها للحسرات الناجمة عن عدم جهاد النفس حتى لا تفوت النهزات والفرص: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:90].

ثم يُختم هذا السياق الذي فيه التنبيه إلى هذه الأضرب من الجهاد المتصل بهذه الغفلات بالرحمة وبالجمال الموجَّهَيْن لأولي الأعذار، ثم بعد ذلك بالجلال الموجَّه لأولائك الذين فرّطوا ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

الغفلة العاشرة: غفلة عدم التمييز بين الناس:

يأتي الحديث بعد ذلك، عن وجوب جهاد النظر إلى الناس بمنظار واحد، وأنه لابد من التمييز بينهم بحسب أخلاقهم وأعمالهم، فالحمق الذي ليس له دواء، جعلُ الناس سواء، كما قيل، فمن الأعراب المحيطين من هو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إنه جهاد النفس حتى لا تبصر الناس كما لو كانوا سواء، إذ إنهم يتميزون عن بعضهم البعض بأعمالهم، قال تعالى في بيان التميز بالإيجابي من الأعمال ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:100].

وقال سبحانه في بيان التميز بالسلبي من الأعمال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:101-102] مما يعني وجود أطياف مختلفة من الناس، ولكل منها خصوصياته، خصوصيات لا بد من رصدها، ، وبناء أنواع التعامل، المناسبة لكلٍّ منها.

وقد ضمت سورة التوبة المباركة، أضرب بناء الكفايات المُمَكِّنة من ممارسة جهاد النفس، وجهاد العقل، وجهاد الوعي، لكي ينتقش فيها جميعها، كل ما سَلف، على شاكلة يصبح الإنسان معها قادرا على إبصار ألوان الطيف كلها، للتعامل مع كل منها بما يلزم، من غير عوج ولا أمت.

4. الطبقات النوعية

ثم يأتي بعد كل هذا الفضل، فصلٌ فيه إظهار طبقات نوعية، تجسد الأفق الذي ينبغي أن يُتَيَمَّم شطرُهُ، طبقاتٌ نوعية يختم الحديث عنها ببيان كونها طبقاتٍ ترتادُ آفاق الجهاد بكل أضربه التي سلف ذكرها. ويبدأ ذلك من الآية الحادية عشرة بعد المائة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فهذه الطبقة النوعية، هي طبقة الداخلين في السلم كافة، الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله سبحانه، وانخرطوا في أمره تعالى حالة العسرة، للدفاع عن الحوزات، والذبّ عن الحرمات.

ثمّ طبقة أهل التشمير الشامل لكافة أنواع عبادتة جلّ وعزّ، الذين قال فيهم سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:112].

ثمّ يأتي ذكر طبقة الذين لا يلوون على أحد، أيًّا كان، في جنب الله تعالى، وهو المتين الذي تحقق به بكمال، نبي الله إبراهيم، عليه وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم. وذلك في قوله تعالى: ﴿ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:112-114].

من هنا فإن جهاد الغفلات السالفة، أمر لابد أن يستبطنه المؤمنون أفرادا وجماعات لعظم هذا الفضل، ولعظم هذا الأجر، ولتأهيله الدخول في كِنّ هذه الطبقات الإيمانية النوعية المباركة.

ثم تختم الدلالة على واقعية هذا الفضل، وارتياد آفاق هذه الطبقات النوعية، بفصل عظيم عن فروض الأعيان وفروض الكفايات فيقول عزوجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يعني أن مسار الجهاد لا يخلو من العثرات، ولا من الموران الداخلي عند الذين يجاهدون أنفسهم، فقد ثبت عن سيدنا عبد الله بن رُواحة، رضوان الله عليه، ما يفيد هذا الموران، حين أنشد مخاطبا نفسه التي نازعته في النزول إلى ساح الدفاع عن دين الله بقوله:

أقسمت يا نفس لتنزِلنّه ما لي أراك تكرهين الجنة
يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حِمَامُ الموت قد صليت
وما تَمَنَّيْتِ قد أُعطيتِ إن تفعلي فِعلَهُما هديتِ[1]

فحمَلها على النزول حملا، من خلال هذا الجدال الداخلي الذي كان له معها. فأهل التشمير عباد ممن خلق الله، فيهم قُوَّتُهم وفيهم ضعفهم، لكنهم لا يظلمون من قوتهم شيئا، يخرجون ثمراتها جميعا، كالجنة التي آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا، رغم أن بعضهم يكاد يزيغ

(1) يعني صاحبيه اللذين سبقاه إلى الشهادة، زيدا، وجعفرا.

قلبه، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، لأنهم استيقظوا، وانتبهوا لفداحة مقعدهم خلاف رسول الله لفترة، فندموا على ذلك، فتاب الله عليهم.

وفي بيان واقعية هذه المجاهدات وهذه الأضرب من الموران، قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بيانا لجلال قدر الصدق ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

5. فصل فريد في فروض الكفايات والعين:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هاهنا بيان مركزية العلم ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ كلمة «النفرة» لم تستعمل في كتاب الله عز وجل من الناحية الإيجابية، إلا في هذين المعنيين، النفرة للجهاد بكافة أنواعه، ثم النفرة لأعظم أنواع الجهاد الذي هو النفرة في طلب العلم،

واستُعمِل مشتقّها ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ في الجانب السلبي، مما يعني أن «النّفرة» ليست فقط للقتال بالسنان، وإنما أيضا لإقامة الحجة والبرهان بالعلم والإنذار باللسان، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ في إظهار لمركزية العلم والتعلم، قياما بالواجب الكفائي، أو بما اصطلح عليه علماء الأمة بـ: «فروض الكفايات»، وهي فروض موجهة إلى الجميع، لكن إذا قام بها بعضهم سقطت عن الباقين.

وفي تسمية علماء أصول الفقه -خصوصًا الأوائل- لها، بالفروض الكفائية، إيحاء، بأن القيام بها، من لدن القادرين، ينبغي أن يكون كافيًا للأمة، وإلا فإنها لا تسقط، ويبقى الإثم عالقًا بعموم الأمة، قال الشاطبي: «القيام بهذا الفرض -يقصد الفرض الكفائي- قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلاً لها، والباقون، وإن لم يقدروا عليها، قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرًا على الولاية، فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها، مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر، وإجباره على القيام بها.. فالقادر إذن، مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر، مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر، إلا بالإقامة، من باب، ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب»[1].

ويدخل في الواجبات الكفائية، كل ما يلزم الأوطان من خدمات عامة لا تتعلق بذمة مكلف بعينه، كالتطبيب، وبناياته، ومستلزماته،

(1) الموافقات، للشاطبي، (1/284-285).

وصناعاته، ومدارسه، وإيجاد العدد الكافي للأمة من الأطباء والصيادلة ومؤسسات تكوينهم وأماكن عملهم وخدمتهم، ومصانع الأدوية والمعدات، وكحراسة الأوطان وحمايتها، وبناء المساكن والطرقات، والقيام بواجب التعليم والقضاء والإفتاء. وغير ذلك مما لا يكاد يُحصر إذ تتجدد حاجات الأمم في كل حين.

ووالواجب الكفائي: هو ما طلب الشارع فعله من مجموع المكلفين، لا من كل فرد منهم بحيث إذا قام به من يكفي من المكلفين، أجزأ ذلك وسقط الإثم عن الباقين. قال الشافعي : في الرسالة: «وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودًا به قصد الكفاية فيما ينوب، فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلّف عنه من المأثم، ولو ضيعوه معًا خفت ألا يخرج واحد منهم مطيق فيه عن المأثم».

ويدخل في هذا القسم من الواجب، وكما سلف، كل ما يلزم الأوطان من خدمات عامة.

ثم جاء بيان حقيقة مفادها، أن الذين لا يريدون أن يرعَوُوا، ويُصرُّون على الأذى، وعلى القتال، سيجدون صوبهم ما يجعلهم يندمون على إصرارهم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 123-125].

والجهاد الدفاعي الجثماني، لا يأتي إلا بعد الجهاد القلبي الوجداني، **جهاد إحياء القلوب**، وهو ما جاء بيانه في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، الذي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»[1].

فمن أعظم الجهاد، **جهاد رفض هذه الفتن** التي تعرض عودا عودا، وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾ [آل عمران: 155] إنه تنبيه لوجوب إعمال الموازين المُتَضَمِّنَة في كتاب الله عز وجل؛ لأنه هو الدعامة للميزان، والدعامة للحكمة، والدعامة للحكم، والدعامة للفضل، والدعامة للارتقاء، والدعامة للرضوان، كل ذلك بكتاب الله إذا تم التعامل معه بالمنهج السليم، وليس بمنهج ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة:127].

وهنا إبراز مرة أخرى لمقام النبوة، ورمّ لما يكون قد استرم في قلوب من أصابتهم قذائف الإرجاف، وذلك بالتذكير بمقام النبوة، وأنه عليه

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وأنه يأرز بين المسجدين، حديث رقم: (144).

الصلاة والسلام رحمة ورأفة، وأنه عليه الصلاة والسلام حريص على المؤمنين، فيقول جل وعز في خاتمة، كلها رحمة، وكلها رأفة، وكلها جمال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فسورة براءة بحمد لله كلها رحمة، وكلها فضل وفيها نسقية تبين مراتب الجهاد، كما أن فيها بناء الكفايات المُمَكِّنَة من التحقق بكافة أنواعه، فالجهاد كما نقرؤه من سورة براءة، أو من سورة الأنفال، ليس البتة كما يحاول البعض تصويره، جهادا بالسنان وبالسيف فقط، فالإعداد للقوة ولرباط الخيل نفسه، إنما جاء لفسخ عزائم العدوان، فالمقصد الذي في سورتي الأنفال وبراءة، كله سلمي بامتياز، فقوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ. وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:60] مفاده أن الإرهاب إنما هو إرهاب عن العدوان، وثني لمن ينوونه، عن الإقدام عليه، بإظهار القَدْر من القوة الذي يرهبهم من عواقبه.

سادسا. أنواع الجهاد:

تقدم معنا قوله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عزوجل عنه» وبيّنا أن الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، وصحّحه الحاكم وابن حبان، وتبعهما على ذلك الإمام شمس الدين الذهبي رحمه الله.

كما تبين أنه لا يمكن أن نبدأ مسار الجهاد، بدون الجهاد الأول، الذي هو جهاد النفس، حتى لا تبقى في غفلتها. والمراد من وراء هذا الجهاد هو جهاد التساؤل، وجهاد الانتباه، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُون. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النبأ:1-2]، فجهاد الانتباه، وجهاد التساؤل، هو الذي يُبَرْعِم في النفس إرادة البحث عن أجوبة هذه التساؤلات، ومن ثمّ فإن **الصنف الأول من الجهاد هو جهاد النفس** عن بقائها في الذهول لكي تستيقظ، ثم **ثانيا: جهادها حتى لا تبقى في حالة الجمود**، أي أن الإنسان لا بدّ أن يدرب نفسه على التساؤل، وهذا التساؤل هو الذي سوف يؤدي إلى **جهاد ثالث، جهاد المكابدة** للبحث عن الأجوبة، وهذا هو الذي يطلق دينامية العلم والتعلم؛ فالبحث عن الأجوبة هو الذي يؤدي إلى إلزام **النفس الاستدامة على طلب العلم، وهو الجهاد الرابع**.

ثم **الجهاد الخامس: جهاد الموانع** التي تحول دون طلب العلم، من أعراض زائلة، وأغراض فانية، ورفقاء سوء يصرفون عن ذلك، واستسلام لطلبات النفس لكي تبقى في الرُّبى السَّفْحِية، دون اقتحام العقبات، والارتقاء في قُلَلِ جبال الرضوان والقربى من الله ذي الجلال

سبحانه وتعالى، وهو جهاد الصبر والمصابرة لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:200).

ثم **الجهاد السادس: جهاد الاستيعاب**، الذي يُتَوّج **بجهاد التثبيت، وهو الصنف السابع** من الجهاد، وجهاد التثبيت يكون بعده **الجهاد الثامن: الذي هو جهاد الاستذكار**، وهذه كلها مراحل منصوص عليها في دواوين العلماء، الذين تحدثوا عن طلب العلم، ككتب ابن عبد البر، وكتب القاضي عياض، وغيرهما من علمائنا الأبرار، جزاهم الله عنا خيرا.

ثم بعد هذه المرحلة الثامنة تأتي مرحلة **الجهاد التاسع: جهاد ترك المنكرات**، ثم **جهاد إتيان الطاعات، وهو القسم العاشر**، ثم **الجهاد الحادي عشر جهاد نشر العلم وعدم كتمانه**، وهي مرحلة تأتي بعد التحقق بالاستقامة تركاً للمنكرات وإتياناً للطاعات، لأن الداعي إلى الفضل، وجب أن يكون متحققا به، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33]. وقد ورد في كتاب الله تعالى، وعيد شديد في حقّ الذين يكتمون العلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:159].

الجهاد الثاني عشر هو جهاد ضبط تطلعات النفس بمقتضى هذا العلم، من حِلٍّ وحِرمة، وحُسْن وقُبْح، وإفراط وتفريط، وخطأ وصواب، وصلاح وفساد، وحق وباطل... جملة من الموازين، يتعين إعمالها.

ثم تأتي بعد ذلك أنواع الجهاد للعقبات التي يتدرج بها الشيطان إلى قلب الإنسان، وهي بتعبير ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» سبعة أنواع، وهي:

الجهاد الثالث عشر: جهاد عقبة الكفر بالله، وبدينه، ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه.

الجهاد الرابع عشر: جهاد عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئا.

الجهاد الخامس عشر: جهاد عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه، وسوّف به.

الجهاد السادس عشر: جهاد عقبة الصغائر: والتي لا يزال الشيطان يهون على الإنسان أمرها حتى يصرّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه.

الجهاد السابع عشر: جهاد عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، حيث يشغل الشيطان الإنسان بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية.

الجهاد الثامن عشر: جهاد عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، حيث يأمر الشيطان الإنسان بها ويحسنها في عينه، ويزينها له ويريه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسبا وربحا.

الجهاد التاسع عشر: جهاد عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى باليد، واللسان، والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط.

ثم بعد ذلك يتم الانتقال إلى **الجهاد العشرين، وهو جهاد شهود العدو**، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر، من الآية:6]، والله عز وجل قد سماه طاغوتا، فشهوده جهاد للنفس حتى تشهده، ولا تذهل عنه.

ويعد **جهاد شهود العدو من أنبل أنواع الجهاد**، لأنه بأنوار العلم يتمكن الإنسان من هذا الشهود، ويصبح قادرا على جهاده فيما يلقيه من الشبهات، وفيما يلقيه من فاسد الاعتقادات، وفيما يقذفه من الشهوات، وفاسد العَزَمَات، إتياناً لما ينهى الشيطان عنه، وتركاً لما يأمر به، والتحذير منه، فهذه ثمانية أنواع من الجهاد.

ولا شك أن الله عز وجل من خلال الوحي الخاتم، قد أعطانا من المَدَد، ومن العُدَد، ومن الأَوَد، ما يكون عونا وسلاحا لنا في هذا الجهاد.

بعد هذه الأنواع العشرين من الجهاد، يخرج الإنسان من حظيرة نفسه، إلى آثار الانهزام المحتمل أمام الأنفس، والانهزام أمام الوساوس؛

وساوس الشياطين من الإنس والجن ﴿الذين يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]، وأعظم هذه الآثار الجهالة.

الجهاد الحادي والعشرين: جهاد الجهالة ومروجيها؛ واستبانة ذلك كله، وتحديد مواقع المروجين، أفرادا وجماعات، انفكاكا ومؤسسات، بإقامة البرهان، وبلورة الحجج الدامغة لحججهم الداحضة.

النوع الثاني والعشرون: جهاد الصبر على الاحتكاك الاجتماعي، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:4]، قوله جل وعز: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:31]، وهذا أيضا أمدّنا الله عزوجل بعُدَدِه ومَدَدِه.

ثم بعد ذلك **النوع الثالث والعشرون: جهاد المدافعة عن محاضن الخير**، وبدائل الفضل، ضمانا للتعاضد والتعاون على البر والتقوى، في مقابل التعاضد والتعاون على الإثم والعدوان، وهو قول الله عز وجل في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:71]، في مقابل قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:67]، وقد سلف بيانه.

ثم **الجهاد الرابع والعشرون**، جهاد الغرور، والاكتفاء، وهي كوابح تحول دون الاستمرار في تحسين المرء أداءه، لأن الإنسان إذا توقف أدركه العدو، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

بعد ذلك ودائما في هذا المستوى الخارجي، من الوجود العيني والمُشَخَّص، يأتي **النوع الخامس والعشرون: جهاد الجوع**، لأن الجوع إذا عض إنساناً، ملك عليه كيانه، وصيره طيعا في أيدي كل من أمدّه باللقمة، أو قد يصير الإنسان عنيفا مما يفتح باب إمكان الافتتان على مصراعيه.

والنوع السادس والعشرون: جهاد الخوف، وهو قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:3 -4].

والجهاد السابع والعشرون: جهاد الظُّلم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:75]، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:98].

ثم بعد ذلك يأتي **النوع الثامن والعشرون: جهاد البذل المادي والمعنوي**، وهو جهاد الجود والحماية والطمأنة، ونشر الثقة والإخاء، وهو ما أشار إلى أهله، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111].

النوع التاسع والعشرون: جهاد بالقلب لاستجماع العزمات. **والنوع الثلاثون: بناء ما يلزم من الكفايات**، للجهاد الناجع الصواب باللسان لمواجهة منهج الإرجافات. **والنوع الحادي والثلاثون: بناء المؤسسات** المؤهلة للجهاد المستدام والناجع، بالمال لتغطية مختلف الحاجات الاجتماعية. **والنوع الثاني والثلاثون: جهاد البناء الراشد** للمؤسسات المشرفة باتزان وشرعية على صدّ الهجمات.

الثالث والثلاثون: الجهاد بالانتظام في البنيان المرصوص، والرابع والثلاثون: الجهاد بالحراك إلى الميدان المنصوص. والخامس والثلاثون: الجهاد بالقيام بالقتال المخصوص.

وهذه الأضرب الثلاثة الأخيرة لا تكون إلا بإذن من مؤسسة الإمامة العظمى، وإشراف منها؛ فإمارة المؤمنين المنضبطة بضوابطها الشرعية، والمحوطة بشرائطها العينية، والمسبوكة بإجماعاتها الفرضية، وتطلباتها الحكمية، ومصداقيتها التاريخية، هي التي تُمْضِي هذه الأصناف من الجهاد.

وتَبْرُزُ وظيفية مؤسسة الإمامة العظمى بهذا الصدد، بكونها المؤسسة المجمع على امتلاكها الصلاحية الحصرية في إعلان الحرب، ولا حق لفرد، ولا لمؤسسة سواها أن يفعل ذلك. ومن هنا يتضح الإغراض الكامن وراء مسارعة أهل الغلو في زماننا هذا؛ مثل «داعش»، و«بوكو حرام»، ومن حدا حدوهم إلى إعلان الإمارة والبيعة، وما إلى ذلك، لامتلاك حق إعلان الحرب، باعتماد الحيل الفقهية المتهافتة، في تطاول على ما لا حق إلا لمؤسسة الإمامة العظمى الشرعية في إقامته،

وحري بالتذكير، أن الإمامة العظمى لها فقهها الضافي الذي يحتاج إلى اجتهادات مستأنفة لإعادة تجلية أحكامه ومقاصده، في ظل المقتضيات الضاغطة بهذا الصدد لسياقنا المعاصر.

سابعا. نظرة في مفهوم الإرهاب في القرآن الكريم:

قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 60-61].

هذا الفضل، وكل كتاب الله فضل، هو الذي أُمِرنا أن نفرح به في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، ويتبيّن بجلاء من خلال آيات سورة الأنفال السالفة، أن الحضَّ على الجهاد، في صنفه الخامس والثلاثين، كما سبق بيانه، إنما غرضه هو إرهاب من يُكِنُّون في أنفسهم عزائم العدوان، لكي يعدلوا عن هذه العزائم، فتُفْسَخ، ويكون السِّلم هو المطلب الجوهري، والأساس المحوري، لأن الله عز وجل أمر نبيه بمقتضى هذه الآية، أمرا يفيد الوجوب، لأنه لم تقترن به قرينة تصرفه من الوجوب إلى الندب، فبقي على حاله، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

ثم تأتي الآية التي بعدها ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله﴾، لا عليك، وإن كنت تعلم أن عندهم إرادة مخالفتك، لا عليك، اجنح للسلم وإن كنت تعلم، وعلم النبي ﷺ، الذي شرح الله صدره، ونوّر قلبه، بأنوار هذا الوحي الخاتم، لا يمكن لكونه تعليم الله إياه، أن يكون علما ناقصا، ومع ذلك فإن الله تعالى يأمره أن يجنح للسلم، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:62].

فإذن المقصد من كل هذا الذي نقرأه في سورة الأنفال وفي سورة التوبة «براءة»، إنما مقصد سلمي بامتياز، والذين يأخذون كلمة إرهاب، ويستعملونها لإخافة الآمنين، ونقض العهود، وإحلال الخراب، وقتل الأبرياء، وإراقة الدماء، وإزهاق الأرواح، هؤلاء لم يجدوا ريح معنى كلام الله سبحانه وتعالى، ولم يجدوا ريح توجهات ربنا عز وجل النيرة في كتابه العزيز.

فقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، إنما القصد الأولي به، وكما سلف بيانه، هو فسخ عزائم العدوان المكنونة في نفوس أهل العدوان، حتى يمسكوا عن عدوانهم، فالتسلح إنما هو أساسا، لثني هؤلاء عن أن يعتدوا، ليستقر السلم، فإن أنتم استجمعتم من القوة ما تحمون به أنفسكم، وما ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلمونهم، ممن قد تتبرعم في نفوسهم نيات العدوان كذلك، فإن فسخها يتم بإذن الله تعالى، من خلال هذا الإعداد، ومن خلال الإنفاق الموجه لهذا الغرض، لكي يتيسر شرط السِّلم، الذي استنادا إليه، وتأسيسا عليه يكون الإبداع، وبه يكون الترقي، وبه تُرى ثمرات العمل بهاديات الوحي، وبفضل رب العزة المُودَع في هذا الكتاب الكريم، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ. وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ. يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 60- 64] في بناء واضح لمقتضيات إثبات وإقرار الأمن والسلم في المجتمعات لتكون مجتمعات العدل الرحمة والفضل والخير، التي يصب كسبها في هذا المصبّ الجمالي والكمالي. أما إذا أصرّ أهل العدوان على عدوانهم، فإنهم سوف يجدون أمامهم من القوة الفعلية، والاستعداد للتضحية، والاستماتة في الدفاع عن الحمى، ما يصدّهم، ويجعلهم في المستقبل يضربون ألف حساب قبل اعتزام العدوان على أهل الإيمان.

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

توطئة 5
أولا. مفهوم الجهاد 7
ثانيا. مفهوم الجهاد ووظيفية العلائق 14
ثالثا. البناء والتأسيس ليقين النصرة 15
رابعا. مفهوم الجهاد من خلال آيات سورة التوبة 16
خامسا. مراتب الجهاد 18
1. جهاد الشبهات التي في العقول 18
2. التنبيه إلى تَصَرُّم الزمن ووجوب جهاد الغفلات 20
3. جهاد الغفلات 25
4. الطبقات النوعية 34
5. فصل فريد في فروض الكفايات والعين 36
سادسا. أنواع الجهاد 41
سابعا. نظرة في مفهوم الإرهاب في القرآن الكريم 49